نقد السياسة الاسرائيلية وشبهة معاداة السامية

جوديث بتلر
ترجمة: خالدة حامد

.. من موقع اليهودي ومحنته

يقدم هذا المقال للنقاش، من جديد، مسألة شائكة ومعقدة وذات طابع مسيّس دائما، وهي مسألة (معاداة السامية). وهي تنطلق من تصريح ادلى به رئيس جامعة هارفرد في شهر ايلول من العام الماضي يقول فيه: "ان الاراء المعادية لإسرائيل هي اعمال معادية للسامية".

لقد ظلت هذه المسألة، بلا شك، مسألة متفجرة دائماً، فبعد سنة من خطاب رئيس جامعة هارفرد، وبالضبط في اواسط الشهر الفائت، ثارت ضجة عالمية على خطاب رئيس الوزراء الماليزي السابق مهاتير محمد في اجتماع قمة منظمة المؤتمر الاسلامي الذي انتقد فيه هيمنة اليهود على العالم ووصفهم بانهم يديرون العالم بالوكالة، وقد اتهم، بالتالي، بـ(معاداة السامية). وقبل ايام فقط، انتقدت الادارة الامريكية علناً بعض الفضائيات العربية، لقيامها بعرض مسلسل تلفزيوني في رمضان الجاري، يحمل اسم (الشتات) يقدم رواية مضادة لقيام دولة اسرائيل، وبالتهمة نفسها دائماً (معاداة السامية).

تقف هذه الخطابات جميعها في مصاف واحد، وان في جهتين مختلفتين، بما انها تثير المسألة نفسها، وبما ان نقد اسرائيل ونقد التاريخ اليهودي ونقد هيمنة اليهود على العالم، كلها يمكن ان تكون معاداة السامية.

يقترح المقال الذي نقدمه هنا ان ثمة امرين متمايزين، هما (نقد السياسة الاسرائيلية)، و(معاداة السامية)، ولكن يجري الخلط بينهما دائماً، مثلما تجري مساواة اسرائيل باليهودية واليهودية بالصهيونية.

ولكن الاهم هو ان هذا التصور يأتي من موقع اليهود، ليكشف لنا عن عمق محنة اليهودي، واليهودي الامريكي على نحو خاص، اذا انتقد سياسية دولة اسرائيل. وفي الوقت نفسه، يقدم لنا هذا المقال معلومات مهمة عن الحركات اليهودية الامريكية الناقدة لدولة اسرائيل والداعية الى السلام والتعايش مع الفلسطينيين، بل المطالبة بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني.

وفوق كل ذلك، يدعونا المقال الى تجاوز طريقة التفكير التقليدية في ما يعرف بـ(قضية الصراع في الشرق الاوسط)، سواء من الطرف الاسرائيلي او الطرف الفلسطيني، ليلمح، من ثم، الى خيارات اكثر راديكالية، احدها هو اعادة النظر في مسألة (حق اسرائيل في الوجود)، لا الغاءً، ولكن اعادة وبناء، لتكون دولة ديمقراطية منفتحة على سائر الاديان، لا محتكرة من قبل دين واحد. وهذه الطريقة في التفكير تمثل تياراً قوياً داخل المجتمع اليهودي العالمي، ولكنها ظلت -على نحو مؤثر- غير معروفة للقارئ العربي. فباستثناء بعض الترجمات والعروض المختصرة للمفكر الاسرائيلي (اسرائيل شاحاك) وللتيار المعروف بـ(التاريخانية الجديدة) ولتيار (ما بعد الصهيونية)، لا يكاد القارئ العربي يعرف شيئاً عن هذه الطريقة في التفكير، مع انه تيار ينمو ويتسع. فهذه المقالة تأتي من مفكرة لا تحسب على احد هذه التيارات. انها جوديث بتلر، المولودة سنة (1956) اليهودية الامريكية، استاذة البلاغة والادب المقارن في جامعة كاليفورنيا ببيركلي، واحدى ابرز العاملين في حقل (النسوية) وسياسة الجنس والجندر، ان لم تكن الابرز على الاطلاق، وهي، كذلك، واحدة من ابرز نجوم الاكاديمية الامريكية في التسعينيات.

ترجم المقال عن الدورية الاسبوعية (London Review of Books) عدد الحادي والعشرين من شهر آب الماضي، وعنوانها في الاصل: (No, Its not anti - semetic)

حيدر سعيد

صرح لورنس سمرز رئيس جامعة هارفرد في السابع عشر من ايلول من سنة (2002) بما نصه: "ان الأراء المعادية لاسرائيل تحظى بدعم متزايد في اوساط المفكرين التقدميين، فقد صار المفكرون والجادون من الناس يتبنون ويقومون بـ(أعمال) معادية للسامية، بالفعل لا بالقصد". والسيد سمرز، بهذا، يحدث تمييزا بين معاداة السامية بالفعل ومعاداتها بالقصد، وهي مسألة جدلية بالطبع، ولكنه -في هذا التصريح- سدد ضربة للحرية الاكاديمية، بالفعل لا بالقصد. ومع انه اصر، لاحقا، على انه لم يكن يعني شيئا جادا في تعليقاته تلك وانه لايمانع من أن تخضع السياسة الاسرائيلية لما سماه (نقاشا حرا أو مدنيا)، الا ان كلمات سمرز كان لها اثر سيء في الخطاب السياسي. فالافعال التي وصفها بانها (معادية للسامية بالفعل) تشمل المقاطعات الاقتصادية الاوربية لاسرائيل والتجمعات المعادية للعولمة التي تحلق فيها انتقادات لاسرائيل، وكذلك جهود جمع الاموال من اجل منظمات يصفها سمرز بانها (ذات اصل سياسي مشكوك فيه). كما ان سمرز ابدى اهتماما بالغا بعريضة التعرية التي خطط لها اعضاء الهيئة التدريسية في هارفرد الاحتلال الاسرائيلي الراهن للفلسطينيين وسوء معاملتها للفلسطينيين، وقد انزعج سمرز من ان تنتقد اسرائيل، دون غيرها من الدول، في حملة تعرية، وتساءل عن اسباب ذلك موحيا بان هذا الاجراء دليل على وجود مقاصد معادية للسامية. ومع انه ادعى امكانية -بل ضرورة- ما سماه (تحدي ابعاد سياسة اسرائيل الدفاعية والخارجية تحديا شديدا)، الا انه لم يكن واضحا بشأن الكيفية التي يمكن ان يحدث فيها مثل هذا التحدي من دون ان يفسر بانه موقف معاد للسامية.

اليهود، الضحايا الافتراضيون دائماً

لقد كان سمرز محقا لقلقه من تنامي معاداة السامية، وينبغي لكل تقدمي ان يتحدى معاداة السامية بشدة اينما وجدت. ولكن، يبدو اننا قد وصلنا، تاريخيا، الى موضع لايمكن فيه فهم اليهود الا بوصفهم ضحايا افتراضيين دائما. وقد تكون اية جماعة كذلك، وقد لا تكون كذلك في احيان اخرى. وعلى العموم، ليست هناك اخلاقيات سياسية تستطيع الانطلاق من افتراض ان اليهود قد احتكروا وضعية الضحية. فـ(الضحية) مصطلح قابل للتحول بسرعة، وبالامكان ان يتغير من آن لآخر، من قتل اليهود بقنابل الانتحاريين في باص، الى مقتل طفل فلسطيني بنيران الاسلحة الاسرائيلية. هناك حاجة الى توحيد الاطار العام على نحو يمكن فيه تحدي كلا النوعين من العنف، باصرار، وباسم العدالة.

ولكن واقع الحال فانا اذا صدقنا ان انتقاد العنف الاسرائيلي او الدعوة الى ممارسة ضغط اقتصادي على الدولة الاسرائيلية لتغيير سياستها هما عملان معاديان للسامية بالفعل، فاننا لن نتمكن، لاحقا، من ان نصرح باية معارضة اخرى خشية ان نصنف في (خانة) المؤسسة المعادية للسامية، إذ لا توجد صفة أسوأ من (معاداة السامية) بالنسبة لليهودي الذي يعرف انه لايمكن ان يتحمل -اخلاقيا وسياسيا- ان يعرف من خلال هذه الصفة. وبالتالي، يتخذ الاطار الاخلاقي الذي عمل بموجبه معظم اليهود التقدميين الشكل الآتي: هل سنصمت (وبذلك سنتعاون مع السلطة العنيفة غير المشروعة)، ام نرفع اصواتنا ونسمع الآخرين (ونحسب على الذين يفعلون ما بوسعهم لايقاف العنف)، وان انطوى التكلم على مخاطرة؟

لقد صور النقد اليهودي الراهن لاسرائيل -غالبا- بانه لايتحسس معاناة اليهود في الماضي والحاضر، مع ان اخلاقيات هذا النقد -في العمق- انما كانت ترتكز على خبرة المعاناة املا في ايقاف المعاناة.

من يحتكر حق التلقي ؟

إذن، كيف يمكن للمرء ان يتبنى فكرة ان الاحتلال الاسرائيلي وحشي وخاطئ وان حق الفلسطينيين في تقرير المصير حق جيد -بالضرورة- ان كان التصريح بمثل هذه الأراء يسقطه في تهمة معاداة السامية؟ والأكثر من ذلك، ان أي نقد يوجه -سواء الى مستوطنات الضفة الغربية او الى حوادث من قبيل اغلاق جامعتي بيت لحم وبير زيت او هدم منازل في رام الله او جنين او قتل الكثير من الاطفال والمدنيين- انما بات يفسر بانه حقد على اليهود. لقد اضفي على هذا النقد معنى خفي يتعارض مع معناه الظاهر، وهو ان نقد اسرائيل عباءة تخفي حقدا على اليهود، وغطاء للدعوة الى اجراء تمييز ضدهم. وبعبارة اخرى: ان الطريقة الوحيدة لفهم معاداة السامية (الفعلية) هي بافتراض معاداة (قصدية) للسامية، إذ يتضح ان معاداة السامية الفعلية التي تظهر في أي نقد مستقرة في قصد المتكلم. وهنا -وعلى وفق المنطق الذي يفكر به السيد سمرز ومن على شاكلته- سوف يستغل هذا النقد من اولئك الذين لايرغبون برؤية دمار اسرائيل، بل تدهور الشعب اليهودي عموما وانحطاطه. وستظل هذه المخاطرة قائمة على الدوام. وبالتالي، سيعمل هذا الادعاء (ان نقد اسرائيل يتم تبنيه بوصفه نقدا لليهود تحديدا) على ان ننسب لهذا النمط المحدد من التفسير القدرة على احتكار حقل التلقي.

لقد كشف الجدل الذي أثير حول فضاء المجال للنقد العلني لاسرائيل عن ان هذا الامر قد يهيئ الفرصة لأولئك الذين لديهم مقاصد معادية للسامية، الذين يستغلون هذا النقد بنجاح. وهنا، يمكن مجددا ان يكون أي قول معاديا للسامية بالفعل ان كان هناك قصد -في موضع ما- باستعماله لاغراض معادية للسامية. ولو اعتقد المرء بان انتقادات اسرائيل تسمع عموما (من اليهود، او المعادين للسامية، او الاشخاص الذين لاينتمون الى هاتين الفئتين) بوصفها اعمالا معادية للسامية لكان من مسؤوليتنا جميعا ان نغير شروط التلقي حتى يبدأ العامة بالتمييز بين نقد اسرائيل والحقد على اليهود.

كما يوحي منطق السيد سمرز، ايضا، بضرورة فسح الطريق لاعمال معينة تقوم بها اسرائيل من دون ان تتعرض لاحتجاج الشعب مخافة ان يكون أي احتجاج مساويا لمعاداة السامية.

ولكن ينبغي لنا -مع ذلك- معارضة كل اشكال معاداة السامية، ولكننا نملك، هنا، مجموعة من الارتباكات الخطرة بصدد الاشكال التي تتخذها معاداة السامية. وعلى الرغم من ان تهمة معاداة السامية استعملت للدفاع عن اسرائيل بأي ثمن كان، الا ان سلطتها تجلت تماما حين استعملت ضد أولئك الذين يمارسون التمييز ضد اليهود من خلال اعمال العنف على دور العبادة (الكنيسة) في اوربا، أو اولئك الذين يلوحون بالأعلام النازية، أو اولئك الذين يدعمون المنظمات المعادية للسامية.

اليهود ودولة اسرائيل: اطار بقاء واحساس بالأبدية!

اذا كان يبدو في كل مرة يتحدث فيها متكلم بكلمة (اسرائيل) انه يقصد (اليهود)، فاننا نكون -في هذه الحالة- قد اغلقنا، سلفا، امكانية ان يقصد المتكلم (اسرائيل) حقا. ومن ناحية اخرى، إذا ميزنا بين معاداة السامية واشكال الاحتجاج ضد دولة اسرائيل (أو المستوطنين اليمينيين الذين يعملون، احيانا، بصورة مستقلة عن الدولة) واعترفنا بانهما، أحيانا، يعملان معا على نحو يثير الازعاج، فسنوفر، في هذه الحالة، احتمال الا ينظر يهود العالم الى انفسهم بوصفهم متطابقين مع اسرائيل -في شكلها الحاضر- وممارساتها، والا ينظر اليهود في اسرائيل الى انفسهم بوصفهم متطابقين مع الدولة.

وبمعنى آخر: تعتمد امكانية حركة السلام اليهودي الجوهري على مراقبتنا للمسافة الانتقادية والنقدية التي تفصلنا عن دولة اسرائيل.

يوحي رأي السيد سمرز بان نقد اسرائيل هو (معاداة اسرائيل)، بالمعنى الذي يفهم فيه بانه تحد لحق اسرائيل في الوجود، على الرغم من اننا لا نؤمن بان ثمة مساواة بين (نقد اسرائيل) و(تحدي وجود اسرائيل)، وان كانت هناك ظروف يمكن بموجبها القول ان احدهما يؤدي الى الآخر. إذ لا يمكن فهم تحدي حق اسرائيل بالوجود بوصفه تحديا لوجود الشعب اليهودي الا اذا اعتقدنا ان اسرائيل هي وحدها ما يديم بقاء الشعب اليهودي على قيد الحياة وان اليهود يستثمرون احساسهم بالابدية في دولة اسرائيل، في اشكالها الراهنة والتقليدية. ومن ثم، ولكي لا ينظر الى نقد اسرائيل بوصفه تحديا لبقاء اليهود، سيكون علينا الا نفترض ان من الممكن ان يطرأ التغيير على (اسرائيل) استجابة للنقد المشروع، بل علينا ان نفترض ان وجود اسرائيل ديمقراطية براديكالية اكبر، سيكون امرا سيئا لليهود. وهذا يعني ان النقد لم يكن يشكل لليهود قيمة ما، فهو يتبخر امام التراث الطويل من الخلاف التلمودي وامام جميع المصادر الدينية والثقافية والتي كانت جزءا من الحياة اليهودية طوال قرون.

فما الذي ينبغي فعله ازاء اليهود الذين لا يتماهون مع اسرائيل او -في الاقل- مع الدولة الاسرائيلية؟ وما الذي ينبغي فعله بازاء اليهود المتماهين مع اسرائيل ولكنهم لايقبلون ببعض ممارساتها؟ هناك، في الحقيقة، نطاق واسع ومتنوع ينضم فيه يهود، فهناك المتوقفون بصمت مع الطريقة التي تتعامل بها اسرائيل مع ذاتها، وهناك الذين لايبدون شيئا سوى تعبير -او شبه تعبير- عن شكوكهم بالاحتلال، وهناك الذين يعارضون الاحتلال بقوة، ولكن من اطار صهيوني، وهناك الذين يسعون الى اعادة النظر في الصهيونية او نبذها تماما. قد يتبنى اليهودي أيا من هذه الآراء، ولكنهم لا يصرحون بها الا امام عائلاتهم واصدقائهم، واذا صرحوا بها علنا فانهم سيواجهون استقبالا غاضبا في بيوتهم. فاذا علمنا بهذه التناقضات اليهودية، فهل ينبغي علينا الا نشكك بالجهود التي تساوي اليهود باسرائيل؟

ان الحجة القائلة بان لليهود جميعا ولعا قلبيا بدولة اسرائيل هي حجة غير صحيحة. فلبعضهم ولع بشرائح اللحم المقددة، او بحكايات تلمودية معينة، او بالطقوس والشعائر الدينية اليهودية، او بذكريات اسلافهم، او بتذوق حساء الخضار الذي كان يصنعه اليهود الروس، او بسماع اصوات مسرح اليدي القديم الذي كانت تكثر فيه الكلمات العبرية والسلافية التي يستعملها يهود اوربا الشرقية، في حين لدى بعض آخر ولع بالوثائق التاريخية والثقافية لاوربا الشرقية او للهولوكوست، او ولع باعمال الناشطين من العمال وصراعات الحقوق المدنية والعدالة الاجتماعية (التي تكون -للمفارقة- علمانية تماما ومستقلة، نسبيا، عن قضية اسرائيل).

اليهود المعارضون والحق الفلسطيني

فما الذي ينبغي فعله بازاء يهود مولعين عاطفيا بدولة اسرائيل -مثلي انا- ولكنهم ينتقدون شكلها الراهن ويدعون الى اعادة بناء جذري لاساسها الاقتصادي والقضائي، فقط لانهم مولعون بها؟ لكن، سيكون من الممكن دائما ان يقال ان مثل هؤلاء اليهود قد انقلبوا على يهوديتهم. ولكن ايضا، ماذا لو انتقد امرؤ ما اسرائيل باسم يهوديته.. او باسم العدالة فقط، لان مثل هذه الانتقادات تتضمن ما هو (افضل لليهود)؟ لم لا يكون ما هو (افضل لليهود) دائما ان يعتنقوا اشكال الديمقراطية التي تمتد لتشمل كل ما هو (افضل)، لكل شخص، سواء يهوديا كان او غير يهودي؟

لقد وقعت مع (3700) يهودي امريكي عريضة مؤطرة بهذه الاصطلاحات، حملت عنوان (رسالة مفتوحة من اليهود الامريكان)، وهي تعارض -بوضوح- الاحتلال الاسرائيلي، وان كنت ارى انها لم تكن قوية بما فيه الكفاية: فهي لم تدع الى انهاء الصهيونية او اعادة تخصيص الاراضي الصالحة للزراعة او اعادة التفكير في حق اليهود في العودة او التوزيع العادل للماء والدواء على الفلسطينيين، كما انها لم تدع الى اعادة تنظيم الدولة الاسرائيلية على اساس المساواة الاكثر جذرية، ولكنها كانت -مع ذلك- نقدا علنيا لاسرائيل. غير ان الكثيرين ممن وقعوا على العريضة يشعرون بقلق منطقي بعد ان تبنوا موقفا عاما (علنيا) من الاسرائيلية، لانهم يخشون من فكرة ان اسرائيل (التي تخضع ثلاثة ملايين ونصف المليون فلسطيني) باتت تمثل اليهود الى الدرجة التي لاتجعل الاعتراض قائما بوجه مثل هؤلاء الموقعين حسب، بل امرا قطعيا لايمكن احتماله منهم بوصفهم يهودا. ولكن الحقيقة هي انهم -لانهم يهود فقط- يؤكدون عدم تماهيهم بالسياسة، ويسعون الى توسيع هوة الشقاق بين دولة اسرائيل والشعب اليهودي من اجل توليد صورة اخرى للمستقبل. لقد مارس هؤلاء الموقعون حقا ديمقراطيا بالتعبير عن النقد وسعوا الى ممارسة ضغط اقتصادي على اسرائيل (عبر الولايات المتحدة ودول اخرى) يؤدي الى تنفيذ حقوق الفلسطينيين المحرومين من الشروط الاساسية لتقرير المصير، والى انهاء الاحتلال، والى ضمان دولة فلسطينية مستقلة او الى اعادة تأسيس قواعد الدولة الاسرائيلية من دون الالتفات الى الذين حتى تشكل اليهودية والعائلة ثقافيا ودينيا واحدا فقط، يحمي بالقوانين نفسها التي تحمي حقوق الآخرين.

نحو حركة ما بعد عنصرية

ان تماهي اسرائيل باليهودية يحجب وجود حركة ما بعد عنصرية في اسرائيل، وهي حركة صغيرة ولكنها مهمة، فهي تضم فلاسفة وعلماء اجتماع او اساتذة مسرح وشعراء. فهل ينبغي لنا القول ان الاسرائيليين الناقدين للسياسة الاسرائيلية هم يهود يكرهون ذواتهم وهم غير متحسسين للأعمال التي قد يؤدي بها النقد الى اثارة شعار معاداة السامية؟

لنقدم بعض المعلومات عن هذه الحركة. فهناك منظمة (بريت تزديك) الجديدة في الولايات المتحدة، والتي تجاوز عدد اعضائها العشرين ألفا على وفق آخر احصائية، وهي منظمة تسعى الى تقديم خيارات نقدية للسياسات الاسرائيلية والامريكية، وتعارض الاحتلال وتعمل في سبيل حل يتمثل بدولتين.

وهناك -ما عدا هذه المنظمة- اصوات يهودية تطالب بالسلام، ويهود مناوئون للاحتلال، وآخرون يعملون من اجل السلام في الشرق الاوسط. كما ان هناك (هيئة السلام الاسرائيلي -الفلسطيني)، و(هيئة اليهود من اجل العدالة العنصرية والاقتصادية)، وهناك تجربة (ينفه شالوم -واحة السلام)، وهي قرية في دولة اسرائيل محكومة تعاونيا من يهود وعرب. وهناك منظمة (بتسيلم)، وهي منظمة اسرائيلية تراقب الاساءات المتفرقة لحقوق الانسان في الضفة الغربية وغزة. وهناك منظمة (غوش شالوم)، وهي منظمة اسرائيلية تعارض الاحتلال. وهناك منظمة (ييش غفول)، وهي منظمة تمثل الجنود الاسرائيليين الذين يرفضون الخدمة في المناطق المحتلة. وهناك، أخيرا، منظمة (تعايش)، وهي تحالف يهودي -عربي ضد السياسات المؤدية الى عزل الفلسطينيين وتردي الرعاية الطبية الخاصة بهم وسياسات مداهمة المنازل والاستيلاء عليها وتدمير المؤسسات التعليمية ونقصان الماء والدواء.

مساواة اليهودية بالصهيونية

ان من غير المجدي مساواة اليهود بالصهاينة ومساواة اليهودية بالصهيونية. وقد اثيرت جدالات بين اليهود طوال القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين حول ما اذا كان من الضروري ان تصير الصهيونية اساسا للدولة، وما اذا كان لليهود اي حق في المطالبة بالارض التي يعيش عليها الفلسطينيون منذ قرون، وحول مستقبل المشروع السياسي اليهودي الذي يرتكز على مصادرة الارض بالقوة. ومثلما كان هناك اشخاص استعملوا الفكرة الصهيونية ذريعة للعدوان العسكري، وما زال هناك اشخاص يواصلون فعل ذلك، كان هناك اشخاص -على الجهة المقابلة- يسعون الى جعل الصهيونية متوافقة مع التعايش السلمي مع العرب، وقد اعتقدوا -وما زالوا يعتقدون- ان الصهيونية ليست أساسا مشروعا للدولة الديمقراطية في وضعية ينبغي لنا فيها ان نفترض ان السكان -باختلافاتهم المتنوعة- يمارسون شعائرهم الدينية، وانه لاينبغي حرمان اية مجموعة -بسبب آرائها العرقية او الدينية- من اي حق ممنوح للمواطنين عموما. وهناك، أيضا اشخاص يؤكدون ان امتلاك الاراضي الفلسطينية بالقوة وطرد سبعمائة الف فلسطيني كان اساسا غير ملائم لبناء الدولة. ومع ذلك، تكرر اسرائيل الآن ممارساتها نفسها في احتواء الفلسطينيين في المناطق المحتلة والتعامل معهم بلا انسانية، فالجدار العازل الذي يجري تشييده الآن، يهدد بتشريد (95) الف فلسطيني.

هذه هي الاسئلة التي تخص الصهيونية، والتي ينبغي لنا طرحها علنا، ولابد من ذلك. وتعد الجامعات واحدة من المنابر التي نتوقع فيها حصول تأملات نقدية عن الصهيونية. ولكننا، بدلا من ذلك، مطالبون -من السيد سمرز وسواه- بان نتعامل مع اية مقاربة نقدية للصهيونية بوصفها عملا معاديا للسامية بالفعل، وبالتالي، التخلص من مثل هذه المقاربة لانها موضوع خلافي.

هناك الكثير من الفروق المهمة التي تتجاهلها وسائل الاعلام الرئيسة حين تفترض ان هناك موقفين ممكنين فقط من قضية الشرق الاوسط: الموقف (المؤيد لاسرائيل) والموقف (المؤيد للفلسطينيين)، وهي تفترض -كذلك- ان كلا من هذين الموقفين يشكل رأيا متميزا او متجانسا في داخله وغير متداخل، فاذا كان المرء مؤيدا لاسرائيل فانه يرى في كل ما تفعله اسرائيل صوابا، واذا كان مؤيدا للفلسطينيين فانه يرى في كل ما يفعله الفلسطينيون صوابا. ولكن هناك آراء سياسية لقلة من الاشخاص لا يتخذون مثل هذا التطرف. فقد يدعو المرء الى حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، ولكنه يشجب -في الوقت نفسه- التفجيرات الانتحارية، وقد يجد الآخرين يشاطرونه رأيه ولكنهم يختلفون معه في الشكل الذي ينبغي لهذا الحق ان يتخذه، وقد يدعو المرء الى حق اسرائيل في الوجود ولكنه لا يزال يطرح اسئلة عن اكثر الاشكال مشروعية وديمقراطية، ينبغي لذلك الوجود ان يتخذها وبالتالي، هل يكون معاديا لاسرائيل من يطرح اسئلة عن شكلها الحالي؟ وهل يكون معاديا لها من يأمل بدولة اسرائيلية -فلسطينية ديمقراطية حقا؟ وهل يكون معاديا لها من يحاول ايجاد شكل افضل لهذه الدولة، عبر عدد من الاحتمالات: كأن تكون نسخة منقحة من الصهيونية، او اسرائيل وما بعد صهيونية، او فلسطين مالكة لحقها في تقرير المصير، او امتزاج الاثنين معا وتحولها الى (اسرائيل فلسطين) كبرى تزال فيها جميع المعايير العنصرية والدينية.

ان الذي يدعو الى السخرية عند مساواة الصهيونية باليهودية يتمثل في تبني السيد سمرز للتكتيك نفسه الذي يستعمله معادو السامية. فعلى سبيل المثال، كانت السيدة مونا بيكر -وهي اكاديمية في جامعة مانشستر- قد طردت اثنين من زملائها الاسرائيليين من مجلس ادارة المجلة التي تصدرها الاكاديمية في محاولة منها لمقاطعة المؤسسات الاسرائيلية، وهي، بذلك، خلطت ولم تميز بين الافراد والمؤسسات، إذ تعاملت مع هذين الشخصين بوصفهما يرمزان الى الدولة الاسرائيلية ما داما مواطنين من ذلك البلد. ولكن المواطنين ليسا سواء بالدول. وبالتالي، فان انتقادي لرأي السيد سمرز ينطبق على السيدة بيكر ايضا، فمعارضة اسرائيل في شكلها الحالي ومعارضة ممارساتها وطرح اسئلة نقدية عن الصهيونية، كل ذلك شيء، ومعارضة (اليهود) (او انهم كلهم يحملون الرأي نفسه وانهم جميعا يفضلون اسرائيل او يتماهون معها وان اسرائيل تمثلهم) شيء آخر.

ومما يثير الغرابة -والالم كذلك- ان مونا بيكر ولورنس سمرز يتفقان في ان اليهودي واسرائيل شيء واحد، اذ ستكون هذه المقدمة المنطقية حجة لمعاداة السامية اولا، واثرا من آثارها ثانيا. فاحد مظاهر معاداة السامية -واي شكل من اشكال العنصرية- يتمثل في ان البشر كلهم يخضعون للمساواة في موقف ما، او رأي ما، او نزعة ما. فان نقول ان اليهود كلهم يتبنون رأيا واحدا عن اسرائيل او ان اسرائيل تمثلهم تماما، او نقول -على العكس من ذلك- ان اسرائيل/ الدولة ترمز الى اليهود كلهم، فان هذا يعني دمج اليهود باسرائيل، وبهذا نرتكب خطأ تحويل اليهودية نفسها الى شكل من أشكال معاداة السامية.

نحو فضاء للاختلاف

من هنا، وايمانا بضرورة التفريق بين اسرائيل واليهود، ادعو الى فضاء للاختلاف، يعبر فيه اليهود وغير اليهود عن انتقاداتهم لاسرائيل، مع انني اعارض -في الوقت نفسه- تحويل معاداة السامية من اليهودية، الى المصالح الاسرائيلية، إذ ما عاد اليهودي يعرف باسرائيل، بل بمعاداة السامية.

ان (اليهودية) تجتاز كلا هذين التحديدين السالفين، ويمكن النظر اليها بوصفها هوية متغيرة، تاريخيا وثقافيا، لا تتخذ شكلا واحدا وليست لها نهاية واحدة. وحالما يوجد مثل هذا الفرق، سوف يكون ممكنا، عندئذ، البدء بمناقشة الصهيونية ومعاداة السامية معا، وسيكون فهم تراث الصهيونية والجدل بشأن مستقبلها مهما بالقدر نفسه الذي تتمتع فيه معارضة السامية بالاهمية.

ان الحاجة الى هذا الفضاء العلني حاجة ملحة، إذ سيكون ممكنا، عندئذ، ان نخوض جدلا عميقا في تلك القضايا وان نحول دون ان يحد هذا الفضاء بانواع معينة من الرقابة والاقصاء، إذ ليس بمقدور المرء، الآن، ان يصرح بمعارضته للعنف الذي ترتكبه اسرائيل، من دون ان يجلب لنفسه تهمة معاداة السامية، فهذه التهمة تعمل على تطويق نطاق الكلام الذي يفترض انه مقبول علنا، كما تعمل على تحصين العنف الاسرائيلي من النقد.

ان المرء مهدد بصفة (معاداة السامية)، بالقدر نفسه الذي يكون فيه مهددا بصفة (الخيانة) اذا ما عارض الحرب الامريكية الاخيرة على العراق.

وهكذا سيكون الهدف من مثل هذه التهديدات تضييق النطاق العلني بتطويق ما يمكن قوله، وسيصبح عالم الخطاب العلني عالما تقيس فيه التطورات النقدية، وسيتوصل الشعب الى فهم جديد لنفسه بانه لن يستطيع التكلم علانية ضد العنف السافر واللامشروع.